العلوم

الفكرة الذاتية والفكرة الموحاة

للدكتور عبد الفتاح سلامه

قد يلعب الانسان النرد مع صديقه للتسلية ولتمضية الوقت، ولكنه قد يغافل صديقه هذا فيغالطه فى أثناء اللعب لأجل أن يكسبه. وقد يجلس الانسان فى المقهى فيرى غادة حسناء فيوسوس له الشيطان أن يتبعها، فيحول الضمير دون ذلك وينسى كل شيء عنها، ولكنه بعد قليل قد يجد نفسه سائراً فى نفس الطريق وقد يلحق بها.

وقد يدخل الانسان فى بيت ما فيجد سلعة جميلة صغيرة فيود لو تكون له ثم ينسى أيضاً كل شيء عنها. ولكنه بعد خروجه من البيت يضع يده فى جيبه ولدهشته ودهشة العالم معه قد يجد هذه السلعة فيه.

فالفكرة الذاتية اللاشعورية عن وجوب الكسب هى التى جعلته يغافل صديقه برغم وجود فكرة شعورية عنده عن وجوب اللعب لمجرد التسلية وبدون اهتمام للنتيجة. والفكرة اللا شعورية الخاصة باتباع الفتاة هى التى قادته للسير فى هذا الطريق رغم احتجاج الضمير واستنكاره. والفكرة اللا شعورية الخاصة بامتلاك تلك السلعة هى التى دفعته إلى أخذها. وهكذا يبدو أنه اذا كان اللا شعور ليس عليه إلا أن يرغب فان الشعور عليه أن ينفذ هذه الرغبة. وهذه هى القاعدة فى الانسان. ولكن كيف يتسنى لهذا الشيطان أن يملى رغبته على الشعور وكيف يتسنى للشعور أن ينفذ هذه الرغبة مع وجود الضمير القوى والعقل المميز الموزون؟

انه يلجأ فى هذا السبيل الى الحزن والتنغيص على الشعور فيضطره الى تنفيذ ما يريد؛ والحزن سببه عدم التمكن من تنفيذ الرغبة أو تخيل عدم إمكان تنفيذها، والحزن يختلف من مجرد شعور بعدم السرور الى انقباض مستمر، وفى نهايته العظمى يكون الحزن المرضى المسمى بالسوداء melaudholia. ففى مثلنا الأول يجلس الانسان للعب وعنده رغبتان كما قدمنا ويبتدىء فى تنفيذ الرغبة الشعورية أى اللعب لمجرد التسلية وعدم الاهتمام للنتيجة حتى اذا ما خانه الحظ وعرف أنه سيخسر الدور فان الرغبة اللاشعورية — حب الكسب — تجد نفسها على وشك عدم التنفيذ فيبتدىء مرح اللاعب يقل شيئاً فشيئاً، ثم يبتدىء أن يكون تعبه آليا أى بدون تفكير منتظم فيشعر الانسان بالضيق فيضطر بعد ذلك أن يجد له مخرجاً يقضى به الرغبة اللاشعورية التى سيت له هذا الضيق. وقد يكون هذا المخرج عن طريق النكتة والفكاهة وهذا من شأنه أن يقلب وضع الأمور فيخيل للمغلوب أنه غالب، وقد لا يكتفى المغلوب بهذا التخيل فيغالط إذن فى اللعب عن قصد وغير قصد. وهو إذ يغالط قد يعمل ذلك أيضاً على سبيل النكتة والفكاهة. والشعور فى عمله لازالة ما قد يشعر به الانسان من ضيق يرضى الرغبة اللاشعورية فيشعر الانسان بالسرور والفرح. ويرضى كذلك الضمير لأنه إنما يغالط لأجل الضحك والسرور ولا حرج عليه فى ذلك. فبالحزن إذن يسيطر اللا شعور على الشعور ويضطره الى تنفيذ ما يريد. وهذه هى طريقة اللا شعور السحرية فى إملائه لرغباته. أو هذا هو عمل الشيطان فى وسوسته لما يبديه. ولعمرى لو كان الشيطان جسماً مستقلاً عن جسم الانسان ولم يكن ممثلاً فى العقل الباطن فان هذا العقل هو صلة الاتصال بينه وبين الانسان.

وفى مثلنا الثانى تجد أن صاحبه بعد أن أمره ضميره بالجلوس عاقلاً مؤدباً ما لبث أن شعر بالقلق فى جلسته وسرعان ما فكر فى مغادرة المكان، ولكنه لا يعلم سبب قلقه هذا؛ لأن الضمير قد طرد الفكرة اللاشعورية من الشعور، أو بمعنى آخر فان الضمير كان سبباً لنسيانه كل شيء عن هذه الفتاة. ولا يكون هناك بعد هذا النسيان ما يبرر منع المسير فى هذا الطريق لو تذكر الانسان

لزوم قضاء حاجة معينة فيه . وهكذا تلجأ النفس الى فكرة شراء شيء معين أو مقابلة شخص معين فى هذا الطريق بالذات . فيقوم الانسان من مكانه سائراً فى الطريق الذى أراده اللا شعور ويزول القلق الذى سببه إذن هذا الأخير عند ما منع عن تحقيق رغبته التى أبداها .

ومع أن اللا شعور يسبب للنفس التاعب من جراء عدم تلبيتها لطلباته فيضطرها الى إجابتها . فانه كالطفل الذى قد يقنع من تحقيق رغبته بالأوهام دون الحقيقة الواقعة . وهكذا نرى فى مثلنا الأول أن اللا شعور قد اكتفى بالنكتة والفكاهة دون تحقيق الكسب نفسه . وفى مثلنا الثانى ولو أن صاحبه سار فى نفس الطريق الذى أراده اللا شعور إلا أن الغرض من السير قد التوى عليه .

ذلك هو اللا شعور ، وقد رأيت أنه الطفل الذى يعيش فى الأوهام أو هو الشيطان الذى يحاول أن يخرج الانسان من الحقائق الى عالم الخيال . وقد نجح فعلاً فى هذا الأمر أى نجاح سواء مع المرضى أو مع الأصحاء . وهل نرى فى العالم شيئاً غير الخيال فى كل مكان ؟ فالمريض العصبى مريض لأنه تخيل المرض . ويقوم الانسان من نومه معللاً الآمال على ما وجد فى رؤياه من تحقيق أمل يرقبه أو النجاة من مكروه يرهبه . ويستمد الشعراء منه الخيال فتكون الاستعارة والتشبيه والتورية . ويستمد الروائيون منه والفنانون كل دقائق الفن ومعجزاته ، فالمثال لم يعمل إلا أنه رغب فتخيل جسم خياله . وحقق رغبته تحقيقاً رمزياً . وهذا مما يدل فى ذاته على أن ذلك الطفل الذى يتذرع بالحزن للحصول على تنفيذ رغباته مع انه قد يقنع بالتحقق الجزئى أو الرمزى لهذه الرغبات ، قادر كل القدرة على السيطرة على النفس لأنها تريد أن تتحاشى غضبه فتنفذ له ما يشاء . فهل يمكن بعد ما تقدم أن نستخدم هذه القوة لعلاج بعض الأمراض ؟

فى الامكان الاجابة على هذا السؤال بالايجاب ، وذلك بواسطة طرق الايحاء المختلفة ، وسنرى فيما يلى كيف يمكن التغلب على هذا الشيطان واستخدامه فى أغراض علاجية كثيرة . وإننا نود أن نشير أولاً الى أن قوة الايحاء تتوقف على عوامل شتى . وأهم هذه العوامل ما كان بفعل المودة والمحبة والتقدير لأنه بسببها يعتقد اللاشعور بما يوحى اليه تمام الاعتقاد . ويرسله الى الشعور ليتولى تنفيذه .

ولما كان الايحاء لا يمكن أن يثمر إلا فى وجود الاعتقاد ، وكان الاعتقاد أيضاً متوقفاً على العوامل المختلفة السالفة الذكر فانه من الواجب أن تكون شخصية الموحى بعيدة كل البعد عن سبب الريبة أو الشك ، وأن يكون هو نزيهاً يزن كل كلمة يقولها ، وأن يكون صالح المريض أول مايرمى اليه ، ونحن اذا أردنا سهولة التعبير وتوخينا إظهار ما نقصده على وجه عام فانه يمكن القول بأن الايحاء هو وضع أفكار أمام العقل على أمل قبولها والاعتقاد فى صحتها . وهى لذلك تأخذ مجرى عكسياً لمجرى الأفكار الذاتية لأنها تبدأ فى الشعور أو التمييز ثم تذهب بعد ذلك الى اللا شعور اذا لم تجد ما يمنع دون الوصول اليه .

وقد يكون الايحاء من أشق الأمور اذا وجدت أفكار ذاتية تخالفه أو تشك فيه ، ويكون من أسهل الأمور اذا وجد من الأفكار الذاتية ما يعززه أو ما لا ينقضه . والايحاء موجود فى الحياة العملية ، وقد يكون الموحى أى إنسان مهما يكن مركزه أو عمره . فقد يجتمع اثنان ويبدى أحدهما إعجابه بشيء معين وقد يكون على حق ، ولكن سرعان مايغير وجهة نظره بعد ملاحظة صغيرة من رفيقه فيبدو له قبح ما كان يعجب به ، وقد ينقم انسان على نفسه لتصرف يعتبره خاطئاً ، ولكن سرعان ما يعد ذلك التصرف عادياً بعد مواساة صديقه . وقد يكون من الأصوب تسمية ذلك النوع من الايحاء إيهاماً ، لأن الأفكار الموحى بها كثيراً ما تكون مخطئة . وترك كلمة إيحاء للأفكار الصحيحة التى لا تحتمل الشك . وعلى كل حال فان الأفكار الموحى بها سواء أكانت صحيحة أم خاطئة فانها تتبع نفس الطريق . أى انها تسير من الشعور الى اللاشعور حيث يحتويها ذلك الأخير فتصبح كالأفكار الذاتية ويعتقد بها الانسان تمام الاعتقاد

والفكرة سواء أكانت ذاتية أم موحاة ، تتحول فى اللاشعور من مجرد تخيل الى حقيقة متخيلة ، وترسل على هذا الاعتبار الى الشعور فيتولى تحويلها من حقيقة متخيلة الى حقيقة فعلية ، أو بمعنى آخر من فكرة الى فعل (من idea الى action) وهكذا يكون التخيل من عمل اللا شعور ، وتنفيذ التخيل من عمل .

الشعور . والشعور مع هذا ليس آلة ميكانيكية لتنفيذ تخيلات ورغبات اللاشعور ، بل انه قد يرد بعض هذه التخيلات الى اللاشعور لعدم ملاءمة تنفيذها وهنا تحدث المشادة بينهما .

فاذا أمكن اقناع مريض عصبي بأن يده المشلولة قد شفيت تماماً فان فكرة الشفاء هذه تتحول فى اللاشعور الى حقيقة متخيلة أو بتعبير أدق الى حقيقة نفسية . وترسل على هذا الاعتبار الى الشعور حيث يتولى اثبات هذه الحقيقة باخراجها من حيز التخيل الى حيز الفعل فيأمر العضلات أن تنقبض ، وهكذا تتحرك اليد ويتحقق الشفاء الموحى به . والمريض العصبي لا يمرض الا اذا تخيل المرض ولا يشفى الا اذا تخيل الشفاء

وهناك قانون آخر كشف عنه كوويه (Caué) وهو أنه اذا حدثت مشـــادة بين الارادة والتخيل أو بين التميز من جهة واللاشعور والشعور من جهة أخرى ، فان الغلبة تكون دائماً للتخيل على الارادة . فشارب الخمر أو الدخان عنده ارادة قوية تحاول منعه من تعاطيهما ، ولكن تخيله احتياجه الى الشرب أو التدخين يقهر الارادة عنده ويستمر فى التعاطى . وهكذا نرى كوويه يتحدث عن المشادة وهى تقرب من المشادة التى يتكلم عنها فرويد بين اللاشعور والشعور ، ولو أن مشادة كوويه شعورية ومشادة فرويد لاشعورية أو تكاد . ولهذا أشار هذا الأخير بتحليلها ومعرفة أسبابها وعرض نتيجة ذلك على التميز ليبت فيها بصورة معقولة ، أما كوويه فانه لما كانت المشادة التى يتحدث عنها شعورية فهو لا يحتاج الى تحليل ، بل يقول انه مادامت الارادة ضعيفة بالنسبة الى التخيل فيجب وضع تخيل جديد أمام العقل يكون من شأنه أن يقلل من قيمة التخيل الأول الذى يتعارض مع الارادة . وهكذا تبطل المشادة ويشفى المريض ، وهو بضع التخيل الثانى بواسطة ايحاء لا يكون فيه ذكر للارادة ، فيطلب الى مريضه أن يقول (لقد تحسنت صحتى وأنا فى طريق الشفاء) لا أن يقول (أريد أن تتحسن صحتى وأريد أن أشفى)

واذا قال أتباع نظرية فرويد بأن المرض يختفى بالايحاء ليحل محله مرض أخف أو أشد منه . أجاب أتباع كوويه بأن من الممكن عمل ايحاء تام يشمل جميع الأمراض ، والواقع أن هذا اذا نجح فى كثير من الأمراض فانه يعجز عن شفاء الكثير منها أيضاً ، لأن المشادة الشعورية ليست الا أثراً أو دليلا على وجود مشادة لاشعورية . والايحاء اذا عمل قبل الكشف عن هذه المشادة الأخيرة قد يخفف من وطأة المرض العصبى مؤقتاً ولكنه يزيد من فعل الضمير فى كبح الرغبات والأفكار الذاتيـة وضغطها ، وذلك يؤدى الى نتائج غير مرغوب فيها . فمعرفة المشادة اللاشعورية فى هذه الأحوال وتحليلها هو من أهم الأمور أولاً ، ثم يأتى الايحاء بعد ذلك بأفكار جديدة سامية وتخيلات ممكنة معقولة . ولهذا نرى فرويد فى كتبه يقول إنه لا يميل الى ايحاء أى فكرة الى المريض بل يجب تركه ليكون لنفسه من الأفكار والتقدير ما يراه مناسباً لها ، فهو بعد الكشف عن المشادة يكون قد شفى من مرضه . واذا كان المريض لا يزال فى حاجة الى الارشاد فقد يوحى اليه فى بعض الأفكار والمثل العليا .

ولما كان كوويه يعتقد أن وجود الارادة من شأنه أن يزيد فى عناد التخيل وتشبثه بتنفيذ رغباته فاننا نجده يعمل لازالة التميز وهو محل الارادة من مريضه قبل ايحاء أى فكرة اليه ، وذلك بواسطة أربع تجارب تثبت للمريض مقدار تأثير التخيل على الانسان فى غياب التميز . وهو بعد أن يقتنع بقوة التخيل هذه يطلب اليه أن يستخدمها فى شفاء نفسه ، وذلك بأن يتخيل الشفاء ، ولكنه بالطبع لا يطلب اليه أن يقول إنه يتخيل الشفاء ، بل انه شفى من مرضه وأن مرضه لن يعود .

وهناك طريقة أخرى للايحاء وهى أن يكرر المريض جملة معينة فى أوقات مختلفة من النهار ولمدة طويلة ، وهذه هى الطريقة التى يتبعها فى أمريكا Herbert A. Parhyn وهى كثيرا ما تفيد فى بعض الأحوال ، لأن التميز اذا عارض الفكرة الموحى بها فى أول الأمر لا يلبث أن يتعرض لها بنقض أو شك فيما بعد فتصل فى النهاية الى اللاشعور وهو مركز التخيل كما قدمنا حيث تخرج منه حقيقة واجبة التنفيذ .

أما الايحاء بالتنويم فلا شك أن الفكرة الموحى بها تصل الى اللاشعور دون أن يقف فى طريقها أى حائل . ذلك لأن النائم يعتقد فى المنوِّم القدرة الفائقة والارادة القوية ، وهو لذلك يأخذ منه الأفكار دون أى مناقشة أو شك فينفذها الشعور بعد قيامه من النوم فى الوقت المناسب . وهذه الطريقة ينطبق عليها ما سبق

أن تـكلمنا عنه بصدد الايحاء بطريقة كوويه . أى أن الاعراض تختفى لأجل أن يظهر غيرها ، وأن الضمير يشتد فى الضغط على رغبات الانسان اللاشعورية بدل أن يسمح لها بالمثول أمام الشعور بالتميز لمناقشتها . هذا الى أن شخصية النائم تصبح ضعيفة تتأثر بأى فـكرة يوحيها أى انسان ، لأن اللاشعور عنده قد كبر على حساب عقله المميز .

أما قيمة الايحاء العلاجية فانها تظهر من استعراض بعض حالات تمكن كوويه من شفائها شفاء تاماً . ومن الغريب أن بعض هذه الأمراض لايمت الى الأمراض العصبية بصلة ما . مثال ذلك أنه تمكن من شفاء صبى عنده التهاب فى عضلات القلب وهبوط قلبى يئس أطباء مشهورون من شفائه . وقد تمكن أيضاً من شفاء النزلة الرحمية والنزيف بالايحاء ، ولنذكر القصة الآتية التى تكلم عنها البروفسور بودوان . فقد حدث أن مريضاً يشكو من نوبات ضيق التنفس (asthma) بات ليلة فى فندق وانتابته النوبة ليلا فقام فزعاً يريد فتح النافذة يلتمس منها هواء نقياً ولـكنه بسبب الظـلام وللحالة النفسية التى كان بها اذ ذاك لم يتمكن من العثور الا على لوح زجاجى تخيله جزءا من النافذة فضربه بيده وكسره ، وعنـد ذلك ذهبت عنـــه النوبة ونام مستريحاً . وعندما تيقظ فى الصباح وجد أن خادم الفندق كتب له ورقة بأن عليه أن يدفع ثمن زجاجة ساعة الحائط التى كسرها . إذن فالذى أنقذه من نوبته ليس دخول الهواء النقى بل هو مجرد تخيل دخول هذا الهواء ، لأنه كسر زجاج الساعة بدلا من أن يكسر زجاج النافذة . وقد ذكر الأستاذ بودوان أيضاً أن زوجة رأت وهى حامل اصبعاً قبيحة الشكل فاستاءت منها وأصبحت صورتها لاتفارق مخيلتها فوضعت هذه الزوجة طفلا بأصبع مماثلة لتلك الاصبع القبيحة تماماً ، وفوق ذلك فاننا نرى كوويه يقول إن المرأة يمكنها أن تلد ماتشاء من ذكر أو أنثى وماتشاء من محاسن وصفات اذا تخيلت رغبتها طول مدة الحمل

وليس هذا الأمر بغريب علينا نحن الشرقيين فاننا كثيراً ما نسمع عما يسمونه (الوحم) هذا فيما يتعلق بتأثير الايحاء على الجنين ، أما تأثيره على الشفاء من المرض فليس هذا بغريب علينا أيضاً لأننا كثيراً ما نقرأ فى الـكتب القديمة عن شـفاء بعض الأمراض بالطلاسم والرقى والبخور ، وهذه هى الأشياء التى نسميها الآن شعوذة وتدجيلا ، مع أنها بمدرســـة قائمة بذاتها بتعاليمها وتلامذتها وأساتذتها الخ . . والواقع أنها كانت فى العصر القديم لها من الأهمية بالنسبة اليه ماللايحاء فى العصر الحاضر من أهمية بالنسبة الينا . والفرق بين طريقة اليوم وطريقة الأمس هو أن الشخص الذى يقوم بالايحاء الآن رجل متعلم يعمل بوازع من ضميره الانسانى النبيل ويوحى الى مرضى مثقفين أيضاً يعرفون قيمة ذلك الايحاء ويعرفون أن قوة الشفاء موجودة فى أنفسهم اذا أمكنهم أن يتخيلوا الشـفاء أو اذا أمكنهم أن يتحكموا فى مخيلتهم . وهكذا نرى أننا بعد أن وصلنا الى هذه الدرجة من المدنية والعلم قد رجعنا الى الطرق التى كان يعالج بها فى الازمنة القـديمة والتى لا نزال نرى بقاياها . والتاريخ يعيـــد نفسه ، فالمريض يشـقى فى العصر الحاضر اذا أوحى اليه بالشفاء فتخيل الشفاء . وفى العصر الغابر كان يذهب الى شيخه فيوحى اليه بالشفاء باذن الله على شرط أن يحمل حجاباً أو يحرق بخوراً . وهو بعد أن ينفذ هذه الشروط يتخيل الشفاء فيتم له . وقد تـكون هذه الطريقة القـديمة أجدى وأنفع للانسان لأنها تجعله يضع ثقتـه فى خالقه تعالى فيستمد من هذه الثقة كل معانى القوة والاطمئنان والراحة والمواساة . بدل أن يضعها فى نفســه وهو كثيراما يشعر بضعفها .

وقد يساعد الايحاء أو الايهام على استفحال الداء ، وذلك اذا كانت الفـكرة الموحاة مخطئة كما يحدث فى بعض حالات السل . ذلك لأن لفظة (سل) مخيفة عند الـكثيرين الذين يعتقدون أنه لاسبيل الى شفاء المريض به ، وبمجرد معرفة احدهم بأن هناك شكاً فى تشخيص مرضه من هذه الناحية لايلبث أن يعتقد بأنه مريض بهذا المرض فيتحقق له اعتقاده ويستفحل الداء ويسير به الى الهلاك بخطى سريعة واسعة . ومع ذلك فمن منا سلمت رئتاه من هذا المرض ؟ وكم رئة اذا شرحت وجدت خالية من التدرن أو من آثاره ؟ فالسل مرض قابل للشفاء مالم يعتقـــد المريض بخلاف ذلك .

عبد الفتاح سلوم